الطابق الثاني - بناية فنيانوس - ص
١٤٤ جونيه - لبنان
(٠٩) ٠٠٠-٩٣٢-٦٣٨٣٣٣
فاكس (٠٩) ١٤٠-٦٤٠

الأوديسيه
للثقافة والإعلام

كلمة الشاعر طلال حيدر في "يوم جودت حيدر"

قصر الأونسكو – الخميس ٦ حزيران ٢٠٠٢

تعرفُ الحياة أن يليق بها أن تطيل البقاء،•ويعرف جودت حيدر كيف يرحّب بضيفه العسر، وكيف يقطف له وردَ الشعر عن القمم الأخيرة من مرتفعات الروح.

كان جدُنا رستم يفتّت الحجر الوعر في بلاد بعلبك، وحجر الصبر في منافي الأناضول، فترعى أعشابَ القلبِ قطعانُ الحنين الى تراب لبنان. يومَها لَم يكن اللبنانيون يسكنون كلٌ في كتابه المقدّس، بل كانوا كلُّهم يسكنون لبنان بدون أن يتخلّوا عن كتبهم المقدسة.

وراح الفتى جودت يتقفّى آثارَ الأهل. يتبعهم الى المنفى. يسأل عنهم الطير كما تسأل المياه عن الينابيع. كَبُر الفتى، وكبرت معه غربته، وقد دفع أهلنا ضريبة الدم ذَوداً عن الأرض. أخوه مُحمد رستم يدير دفة السفينة للأمير فيصل في مؤتمر الصلح ومعاهدة سايكس بيكو في باريس، ثُم وزيراً لِمالية العراق مع الفيصل الذي تُوِّجَ مَلِكاً. وجودت حيدر موكل بفضاء الأرض يزرعه بَحثاً عن مفاتيح خزائن العقل والمعرفة، ليرى كيف خرج من القمقم هذا المارِدُ الذي اسْمُه العالَم الجديد، متخطياً أوروبا العريقة، وقد عرفها جيداً وسكن عاصمتَها باريس. ذهب الى آخر الأرض. لَم يذهب بَحثاً عن التبر في ذهب الأنْهر، ولا جرياً وراء رغيف. كنا، إذا ضاقت الأرض بنا، يأكل الطير من بيادرنا والرعاة. ذهَبَ الى آخر الأرض، وكانت أميركا آخرَ الأرض، ليتعلّم الزراعة، علّ سهلَ البقاع الكُلّيَّ الرأفة يَملأ أهراءات لبنان كما ملأَ أهراءات روما من قبل. وتَهَدَّم هذا الحلم بعد الرجوع، كما تَهَدَّمت أحلامٌ كثيرة. "يا بلادي، إنْهضي يا بلادي"، وبلادي نعسانةٌ لا تُحِبُّ النهوض، لأن الصحوَ يفتح عينيها على الكارثة، وأصبح سهل البقاع يستغيث: "المياه... المياه"!

كان جودت حيدر قاسياً في عمره الأول. لا يَحيد عن مبادئه ومفاهيمه، ولو كلّفته أن يكون وحيداً. وكانت الحياةُ أقسى منه، فسرقت وحيده. لكنّ إيْمانه سرق الفاجعة، وغيَّبَ الترابُ باكراً وحةَ عشيرة عمره، فتماسك على غيابها، وبقي وحيداً، وفياً لذكراها كأنه من زمن الأساطير. من أين نأْتي لكَ بهذه الأحزان مرةً ثانيةً لتكتب هذه القصائد؟ خاض غمار السياسة. كان طوباوياً بفهمه لَها، ورغبته فيها ببلدٍ يرتاح من يرغب عنها لا من يرغب فيها، لأن هذا البلد يُمثّلُهُ غالباً من لا يشبهه. ونَحن، أهله وعشيرته، يا ما تفرَّقنا من حوله شاباً واجتمعنا حوله كهلاً، لأننا لَم نَعُد نَخاف منه بل صرنا نَخاف عليه. يَمُدُّ الله في عمره لأن الله يشاء أن يَمنحَه زمناً كاملاً من الشعر. ذاهبٌ الى الشعر وقد أدرك الخلاص. باطل الأباطيل وكل شيءٍ باطل. مَجدُ الأرض باطل، ومَجدُ السلطة باطل، وتغييرُ هذا الشرق العربي باطل، والشعرُ هو الأول والآخر. هو الحق والباطل والخطيئة والفضيلة والليل والنهار. يَمُدُّ الله في عمره ليعوِّضَ له عن زمنٍ حاول فيه تغيير عالَم لا يتغيَّر قبل أن يدرك أن الشعر وحده يغيّر العالَم، يبني وطناً ساستُهُ آلِهة وملوك، يقومون من نواويسهم في جبيل، ليناموا في القصائد، وبالشعر الذي أبدعه جودت حيدر يعود سهل البقاع يَملأ أهراءات الروح بصوت شبّابة بان (PAN) إله المراعي وهو يسوق قطعان الصيف الذاهبةَ الى الشتاء. وحده الله يَخلق من عدم. يقول له "كن" فيكون، لأنه الخالق الذي لا يتغيّر. أما نَحن الشعراء الذين نسكن جسد اللغة، فإنّما نُحاول أن نُعيد خلق العالَم كي لا نعبر مضيق الموت في وحشة الانفراد.

يبدع جودت حيدر في شعره أحلاماً لَم تَخطر على بال النوم. ولَطالَما نُسِبَت قدرة الشاعر الى عبقر، الى قدرة فوق البشرية، لأنّها مذهلة تصعق كالدهشة، وتُحرق كمعصية بعد صلاة. ومن قصائده ما هو تنبُّؤي يقرأ الآتي قبل أن يأتي. شعره لا يقرأ المستقبل كالعرافين، إنّما يصنعه كالنبوءة. جودت حيدر شريكٌ في استحضار المستقبل وصنعه معاً. والذين يظنون أن الشعر لا دوْر له في تغيير العالَم، ليسوا يدركون من الشعر إلاّ حسد الأحرف وسرير الكلمات. وهكذا يكتشف شعر جودت حيدر الحقائق الساكنة ويشير إليها، وتأخذ عنده نبرة المعلّم الحكيم القابض على الحقيقة، فيقول "اسْمعوا"، ويقول "انتبهوا"، ويقول "ويلكم"، ويقول "وَيْحَكُم"، فتجري حكمته الساطعة بين "من ينظر الى..." وبين "... يَجد أن...". ألَم يلتقط هوميروس الجوهري قبل هيرقليطس الذي كان تأسيساً لعالَم إغريقي جديد شهد مولد الفلسفة؟ أليس الشعر الشمولي هو الذي يُجيب عن كل التساؤلات بومضة شعرية عند كل انْهيار للدلائل والبراهين؟ إن الشعر عند جودت حيدر يهدد الفكر دائماً إذ يستفزُّهُ ليعيد النظر في مسلّماته البديهية، فاتحاً أمامه باباً من أبواب المعرفة، ليبني عالَماً مغايراً لعالَم الكسل المألوف والتقليد الأعمى. جودت حيدر شاعر تحريضي على ترك الذي توارثناه كمسَلَّم بديهي، فاتحاً باب المعرفة الحدسية التي تتجاوز المنطق لأنّها السرُّ والتميمةُ والخطر والتعويذة. الشعر خطرٌ رائعٌ. إنه الخطر الماكر الذي يعيد خلق العالَم من جديد كلّما أصبح العالَم على تُخوم الرماد. هذا الشاعر يذكّر بالكبار الذين مروا على مدى العصور: حكمة تذكّر بشكسبير، ورؤية كونية تذكّر بأوفيد وشعراء ملاحم الإغريق. ومن مفارقاته أيضاً، أننا هنا في لبنان كان انفتاحنا على الأدب اللاتيني لأسباب معروفة، فبدأنا عصر النهضة بالبرناسيين اللبنانيين: أبو شبكة وصلاح لبكي والكبار معهم وبعدهم، وهناك في العراق كان انفتاحهم على الآداب الأنكلوسكسونية والشعراء الذين ألْهَمَتْهُم الحركة الدوّامية (فورسيسيسم): البياتي والسياب وجيلهما، وبقي الجواهري خارج الانفتاح، تتمة لتتالي العصور العربية الكلاسيكية. جودت حيدر يأتي خارج السرَبَين. شاعر بالإنكليزية بين الفرنكوفونيين، وبنيوية قصيدته خارج البنيوية الأنكلوساكسونية التي من سِماتِها المنطق الصوري والتداعي المنطقي من المقدمة الى النهايَة، والاعتماد على الأسطورة كما هو حليٌّ عند ت. إس. إليوت في "أربعاء الرماد" أو "الرجال الجُوف" أو "الأرض الخراب". جودت حيدر يكتب شعره بالإنكليزية في لغة يتداولُها الخاصة، وبالعربية أيضاً، وقصيدتهُ مبنيّةٌ على تداعٍ روحي، قائمة على المنطق الحدسي الشفاف، معتمدة أحياناً على التلميح التاريخي، وأحياناً على التلميح الأسطوري، وغالباً على تراثنا من الألوهة الى النبوءة، انفتاحاً على الحق والخير والجمال. شكراً للبنان الذي أصبح يكرّم مبدعيه بعد أن كان يُهمل عاشقيه. هذا الرجل الواقف أمامنا كالرمح، حاملاً على كتفيه سبعةً وتسعين عاماً، أحْمل قصائدِه عمرُهُ، وما تركتْ له الحياةُ من بناتٍ يعلّمن أنّهنّ في حضرة النار المقدسة والمياه التي لا تعود مرتين.

تعرف الحياة أن يليق بها أن تطيل البقاء، ويعرف جودت حيدر كيف يرحِّب بضيفه العمر، وكيف يقطف له ورد الشعر عن القمم الأخيرة من مرتفعات الروح.